المدرسة التركية في التفسير – في الدولة العثمانية

(أبو السعود العمادي أنموذجاً)

د. صلاح الدين عوض محمد*

مقدمة:

تعرضت كل الدول الإسلامية التي قامت عبر التاريخ الإسلامي إلى محاولات التشكيك وطمس محاسنها من قبل أعدائها؛ إذ لم تكن الحرب بين الإسلام وأعدائه في الميدان العسكري بل وفي الميدان العلمي والفكري، وكان نصيب دولة الخلافة العثمانية هو الأكبر.

لم يكن علماء العلوم الإسلامية وفي مقدمتهم علماء التفسير في معزل عن حملات التشكيك هذه؛ لأن الأمة التي يصور لها علماؤها بأنهم أهل نفاق ومداهنة للسلطان ينفر الناس من علمهم وتطمس جهودهم في بناء أمتهم.

تواجه الدول في حكمها عوامل كثيرة تعوق تقدمها وتحقيقها لغاياتها، ومن أخطر تلك المشاكل الحروب العسكرية والفكرية والتي تؤسس على كل أنواع العصبيات خاصة عند اتساع رقعة الدولة؛ فالدولة التي لا تهتم بعلمائها في رسم الاستراتيجيات سريعاً ما تزول؛ ولا يفرق في ذلك بين علماء العلم الشرعي ولا علماء العلوم الطبيعية التطبيقية؛ وكان هذا الجمع بين العلمين من أكبر التحديات التي واجهت الدولة العثمانية؛ فكيف استطاعت أن تستعين بعلماء الشرع وفي مقدمتهم علماء التفسير.

إن التحدي الذي يواجه الساسة ورجال الحكم- من قبل علماء قصيري النظر، وتغيب عنهم الرؤية الشرعية المقاصدية، والذهنية المتفتحة لاستيعاب كل مدارس الفقه الإسلامي- لا يقل خطورة من تحدي العدو الخارجي؛ فكثيراً ما كان العلماء يساهمون في تأجيج الفتنة والوقوف ضد التقدم الحضاري، وتجديد الفقه ليواكب حركة التجدد والتطور؛ فكيف استطاعت دولة الخلافة العثمانية أن تختار علماء لهم قدرة على توجيه المجتمع وتقديم فتاوى تساهم

---

* الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية.

في إدارة التنوع في دولة ضمت كل الأجناس، وتعتمل بداخلها كل الأديان والطوائف والمذاهب الفقهية بمدارسها المختلفة.

إن هذا البحث يختار واحداً من أبرز علماء التفسير وهو أبو السعود ليبرز دور علماء التفسير في بناء دولة الخلافة الإسلامية العثمانية؛ بينما المعروف عن كثير من العلماء التزلف للحكام ومنافقتهم من أجل الباعث النفسي الدنيوي؛ ففي مثل هذه الأجواء تتعطل حركة الاجتهاد وتكثر ظاهرة كتابة الحواشي؛ ومثلما تهزم الأمة في الميدان العسكري تكون مصيبتها أكبر إذا هزمت في الميدان الفكري.

المحور الأول: أبو السعود: مولده ونشأته والحياة السياسية والاجتماعية في عصره.

يرى الباحث أن الوقوف على حياة أبي السعود وعصره يعين على قراءة وفهم منهجه في فهم النص القرآني، والدور الذي قام به في قضايا السياسة والحكم في ظل دولة الخلافة العثمانية؛ وكيف استفادت دولة الخلافة العثمانية من علماء التفسير في توطيد أركانها، خاصة وهي دولة تمثل خلافة المسلمين، ويطلق على ملوكها وسلاطينها ظل الله في الأرض.

أولاً: مولده ونشأته:

أَبُو السُّعُود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: ولد وتوفي(٨٩٨ - ٩٨٢ هـ = ١٤٩٣ - ١٥٧٤ م)، ولد بقرب القسطنطينية، وهو من علماء الترك المستعربين.

تتمثل مواهبه العلمية في الشعر والتفسير، والتدريس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم ايلي، مفتي الديار الرومية، بل الممالك الإسلامية، وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢ هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة: (كتب الجواب مرارا في يوم واحد على ألف رقعة) باللغات العربية والفارسية والتركية، تبعا لما يكتبه السائل.

وهو صاحب التفسير المعروف باسمه وقد سماه (إرشاد العقل السليم إلى مرايا الكتاب الكريم - ط) ومن كتبه (تحفة الطلاب - خ) في المناظرة، و (رسالة في المسح على الخفين - خ) و (رسالة في مسائل الوقوف - خ) وأخرى في (تسجيل الأوقاف - خ) و (قصة هاروت وماروت - خ) وشعره جيد خلص كثير منه من ركاكة العجمة. وكان مهيبا حظيا عند السلطان، يؤخذ عليه الميل الزائد إلى أرباب الرئاسة ومداهنتهم. وهو مدفون في جوار مرقد أبي أيوب الأنصاري. [١]

---

(١) ينظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام (٧/ ٥٩)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م وينظر: أحمد بن محمد الأدنه وي، طبقات المفسرين، ص ٣٩٨- ٣٩٩، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ، المحقق: سليمان بن صالح الخزي.

اعتمد في تفسيره على مصادر متعددة منها تفسير البيضاوي والقرطبي والثعالبي والواحدي والبغوي. [٢]

توفي أبو السعود بالقسطنطينية، وكانت جنازته حافلة حضرها جمع غفير وصلى عليه فخر الموالي سنان، ودفن بمقبرته التي أنشأها بالقرب من تربة سيدي أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه. [٣]

يفهم من سيرته الذاتية أنه جمع بين القضاء والإفتاء؛ ولو لا مؤهلاته العلمية لما جمع له بين المنصبين(القضاء والافتاء)؛ فإنه قلَّ ما يجمع لعالم بينهما، وربما كان لمداهنته للسلطان أثر في ذلك؛ ولعل الهدف من هذه المداهنة تولي مثل هذه المناصب حتى لا يتقلدها من هو أقلُّ كفاءة؛ واهتمام الحكام بمثل هؤلاء العلماء فيه مؤشر إلى بصيرتهم النافذة واهتماهم بالعلماء.

ثانياً: البيئة السياسية وأثرها في فهم النص.

لم يكن علماء التفسير والفقه والحديث في عصر دولة الخلافة العثمانية في معزل عن التفاعلات السياسية والحروب التي خاضتها الدولة ضد النصارى والرافضة والمنافقين المتعاونين معهم لم يكونوا في معزل عنها؛ خاصة أبو السعود الذي تولى الإفتاء والقضاء وخرج بنفسه إلى الجهاد.

وقد عاصر أبو السعود حكم السلطان سليم الذي توفي سنة ١٤٨١م وكان عمر أبي السعود المولود سنة ١٤٩٣م اثنتي عشر سنة أي ولد بعد وفاة السلطان سليم باثني عشر سنة.[٤]

ويذكر أبو السعود أنه ألف كتاب التفسير وقدمه هدية إلى السلطان سليمان القولوني؛ وما يسميه بالخزانة العامرة، وخادم الحرمين، ويصفه بأن الله اصطفاه

---

(٢) ينظر: نجم الدين محمد بن محمد الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ٣١)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، المحقق: خليل المنصور.

(٣) ينظر: محمد الغزي، مصدر سابق، (٣/ ٣٣).

(٤) ينظر: بسام العسلي، سلسلة جهاد شعب الجزائر (١/ ٣٨)، الناشر: دار النفائس.

لخلافة الأرض كلها فقهر الأكاسرة والجبابرة والفراعنة والقياصرة في إشارة إلى حروبه ضد هذه الدول وانتصاره عليهم. [٥]

ويفهم من هذا أن أبا السعود قد عاصر السلطان سليمان وأثر وتأثر بسياسته؛ وقد تمت حروب كثيرة في عهد هذا السلطان.

ثالثاً: المؤهلات العليمة والفكرية والخبرات الإدارية لأبي السعود:

يستخدم أبو السعود خبرته في القضاء والافتاء الذي أسند إليه من قبل الدولة والسلاطين؛ مما يجعل لتفسيره معنى؛ ويكشف دقة معايير السلاطين في اختيار أمثال هؤلاء العلماء الذين جمعوا بين العلم والعلم.

ويذكر أبو السعود عند تفسير قصة ذي القرنين في سورة الكهف مدينة مقدونية التي ينسب إليها ذا القرنين، وهي من بلاد الروم غربيَّ دارِ السلطنة السنية قُسطنطينيةَ المحمية، لا زالت مشحونةً بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشرة يوماً أو نحوِ ذلك عند مدينة سَيروزَ اسمُها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سريرَ مُلك هذا الإسكندرِ وهي اليوم بلقَعٌ لا يقيم بها أحد ولكن فيها علائمُ تحكي كمالَ عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكةِ واليها وسلطانِها ولقد مررتُ بها عند القُفول من بعض المغازي السُّلطانية فعاينتُ فيها من تعاجيب الآثارِ ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار. [٦]

ويفهم من هذا السرد أن أبا السعود كان من العلماء المجاهدين الذين يخرجون مع جيوش الخلافة العثمانية؛ ويستخدم لفظ (المغازي السلطانية) نسبة إلى الخليفة الحاكم؛ وفي ذلك إشارة إلى أن الدولة العثمانية كانت تستخدم ذات المصطلحات الإسلامية في دولة المدينة وصدر الإسلام(المغازي).

ويذكر أبو السعود أن الله ابتلاه بتدبير شؤون ومصالح العباد سواء كان في فترة توليه قضاء العسكر والجنود أو قضاء عامة الناس في مختلف ممالك الخلافة العثمانية، وكذلك كان يخرج في المغازي السلطانية. [٧]

---

(٥) ينظر: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ١/ ٥- ٦. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٦) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه، (٥/ ٢٤١).

(٧) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (١/ ٥).

ويرى الباحث أن تفسيره للقرآن بعد هذه الخبرة والتجربة القضائية في القضاء المدني والعسكري، والجهاد في سبيل الله، وكثرة تنقله في ممالك الخلافة العثمانية المترامية الأطراف، ونزعته الصوفية؛ كل ذلك جعل لتفسيره قيمة علمية؛ ويقف تفسيره شاهداً قوياً على ذكاء وورع وصدق بعض حكام وملوك الدولة العثمانية؛ إذ يقربون أمثال هذا العلم من أعلام التفسير في جهادهم وحكمهم.

رابعاً: الوضع الاجتماعي للعلماء في ظل دولة الخلافة العثمانية:

إن الوقوف على هذا الوضع يكشف إلى أي مدى ساهم العلماء في تأسيس ونصرة دولة الخلافة الإسلامية العثمانية.

قال تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي (المتوفى: ١٠١٠هـ)، مولف كتاب: الطبقات السنية في تراجم الحنفية: وما زال صاحب الترجمة(يقصد نفسه) يأخذ الفضائل عن أهلها، ويستخرج الجواهر من محلها، ويحضر دروس العلماء، ويحاضر الأئمة البلغاء، ويفيد ويستفيد، ويتنقل في المناصب إلى أن صار مدرساً بمدرسة السلطان سليم الأول، بمدينة إصطنبول، ثم لما نور الله تعالى عين بصيرته، وطهر من دنس المناصب فؤاد سريرته، ورأى أن الدنيا لا بقاء لها، ولا وثوق بها، وأن الأخرى هي دار البقاء، وأن سعادتها نعم السعادة وشقاها بئس الشقاء، ترك الفاني، واختار الباقي، وأقبل على الله تعالى إقبال عالم بما أحب واختار، وتارك لما يقرب من عذاب النار.

وعزم على الإقامة بالديار المصرية، أو المجاورة بالأقطار الحجازية، إلى آخر عمره، أو إلى انقطاع نصيبه، وأن يطلب من فضل الله تعالى، ثم من حضرة السلطان نصره الله تعالى، أن يعين له من بيت المال ما يكفيه هو ومن معه من العيال، فعينوا له من الدراهم ومن الغلال. (٨)

يفهم من هذا أن العطاء السلطاني للعلماء يمتد منذ أن كانوا مدرسين وإلى ما بعد المعاش حتى ولو كانوا خارج مركز وعاصمة الخلافة.

المحور الثاني: أبو السعود والوضع السياسي والعسكري في دولة الخلافة العثمانية.

يرى الباحث أنه من الضروري معرفة موقف ودور علماء التفسير – وفي مقدمتهم أبو السعود- في الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت في عصرهم؛

(٨) ينظر: تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص: ٢٤٧).

وكيف ظهر ذلك في اختياراتهم التفسيرية، وإلى أي مدى شكل ذلك سنداً فقهياً وفكرياً وعقدياً لخلفاء دولة الخلافة العثمانية وهم يخوضون حروباً في كل الجبهات؛ ويمكن تتبع ذلك من خلال الآتي:-

أولاً: التنازع السياسي بين دولة الخلافة والغرب الصليبي على الشمال الأفريقي.

تقع دول الشمال الأفريقي- المغرب العربي- التي تضم المغرب والجزائر وتونس وليبيا اليوم ضمن حدود دولة الخلافة العثمانية في شكل ممالك وإمارات شبه مستقلة.

كانت التقارير التي تصل إلى الملك فرديناند من جواسيسه عن بلاد المغرب العربي أنها تعيش في حالة من الانهيار النفسي فالله قد هيأها لتكون لصاحب الجلالة المسيحية؛ بسبب الفوضى السياسية والاضطرابات بين الممالك والإمارات التي لاحد لعددها؛ وقاد البابا بنفسه الإعداد للحملة الصليبية ليخضع بلاد الشمال الإفريقي للحكم المسيحي ثم للدين المسيحي؛ وفرضت الضرائب على كل المسيحيين؛ لمحاربة المسلمين الكفار. (٩)

تكونت الحملة الصليبية سنة ٩٧٩هـ عبر تحالف عريض بين معظم دول أوربا المسيحية واشترك فيها رجال الدين والأشراف والأمراء من أجل تدمير البحرية الإسلامية لأنها هددت البندقية، مع تعبية شعبية عبر الصلوات في كل الكنائس، وانضم الأسطول الجزائري المحسوب على العالم الإسلامي إلى الأسطول الصليبي ضد المسلمين، والحفصي صاحب تونس، وكان النصارى في الداخل يترقبون النصر لينقضوا على المسلمين، وانتصر المسلمون مما جعل سكان الجزائر يبايعون السلطان سليم ويطبعون العملة باسمه.(١٠)

وظلت بعض دول الشمال الإفريقي تحت حكم نصارى الأندلس عن طريق حكام مسلمين منافقين من أمثال محمد الحفصي الذي أبرم صلحاً مع صاحب أسبانيا الكافر قضي بوضع تونس تحت أيدي الكفار، فغضب السلطان سليم خان العثماني حمية وعصبية للإسلام؛ وتواترت عليه رؤى الصالحين التي مفادها بأنه منتصر على أهل الكفر والزيغ والضلال؛ بل وكان المسلمون في الأندلس يتطلعون لنصرة الدولة العثمانية عندما خذلهم حكام الشمال الإفريقي؛ وحصر همه في استنقاذ أسرى

---

(٩) ينظر: بسام العسلي، مرجع سابق، (١/ ٥٦- ٥٨.

(١٠) ينظر: المرجع نفسه، (٢/ ٣٥- ٣٧.

المسلمين من النصارى الكفار عبدة الصليب والأصنام في بلاد الأندلس؛ وخاض العسكر المسلمين معارك كثيرة لطرد النصارى ومن شايعهم من العرب المرتدين. (١١)

يفهم من هذا أن الدولة العثمانية كانت أمام تحدي خارجي صليبي مسيحي، يقود حرباً دينية ضد بلاد المسلمين، وأن الوضع الداخلي- في المغرب العربي- كان منهاراً بسبب الفتن والاختلافات بين حكام دول الشمال الإفريقي والعمالة والتحالف مع الأجنبي.

وجاء في فضائل العثمانيين أنهم هم من وسعوا رقعة الدولة الإسلامية في بلاد الغرب وكانوا يجاهدون الكفار والمرتدين ويقاتلون الباغين والمارقين؛ ويقيمون حدود شرائع الدين.

وإن من أقوى الأسباب التي مكنتهم من ذلك أن نظام الحكم عندهم يقوم على مبايعة خليفة واحد وقتل كل من خالفه بناء على الحديث النبوي الذي يمنع اشتراك البيعة، وتولي العثمانيون بأنفسهم الملك والإمارة والمناصب الجليلة والمناصب واتخذوا الحصون والقلاع، وقادوا الأغربة البحرية بأنفسهم، وقطعوا رأس كل من تسمى بالسلطان والملك؛ وكان بعض الأولياء يرى أن دولتهم تمتد إلى زمان المهدي المنتظر وهم الذين يسلمونه الخلافة ويكونون من شيعته وناصري دولته، وقد سؤل السلطان سليمان إذا ظهر المهدي هل تسلمه الخلافة دون منازع؟ فقال: أرى نفسي تنازعني في رياسة الخلافة لأنّه قيل آخر ما يخرج من قلوب الصّدّيقين حبّ الرياسة. (١٢)

يفهم من هذا أن أبا السعود كان من العلماء المجاهدين الذين يخرجون مع السلاطين لجهاد الكفار والمرتدين والباغين المارقين على السلطة الشرعية المتمثلة في الخلافة الإسلامية؛ بل يرسخون في ذهن العامة أن الدولة العثمانية هي التي سوف تنصر المهدي المنتظر؛ وكان لهذا الموقف أثر كبير في مواجهة الغرب الصليبي الذي يستخدم مصطلح الكفار ضد المسلمين؛ فالمعركة بين الجانبين اختلط فيها الجانب الديني والفكري مع السياسي العسكري.

---

(١١) ينظر: محمود المقدشي، نزهة الأنظار في التواريخ والأخبار، ٢/٧٠- ٧١، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م، تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ.

(١٢) ينظر: محمود مقدشي، مصدر سابق، ٢/ ٦٦، ٦٧.

وكان النصارى يخافون من الدولة العثمانية ودخلهم خوف ورعب شديد ويتمنون زوالها؛ بل ويبحثون عن إشارات ذلك في كتبهم المقدسة. (١٣)

وفي ظل هذا الصراع يقف الباحث على عدد من نصوص القرآن التي تتعلق بهذا الواقع وكيف فسرها أبو السعود متأثراً بهذا الواقع السياسي.

قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} سورة البقرة: ١١٤.

يرى أبو السعود أن ليس أحد يكون في ظلمه أشد ولا مساوي لمن يمنع مساجد الله والتي يقصد بها كل المساجد لا مسجداً بعينه، ولو كان سبب النزول في طائفة معينة في مسجد مخصوص، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وروي أن النصارى الروم غزوا بيت المقدس فخربوه فألقوا فيه الأذى والجيف وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا بني إسرائيل؛ وما يزال بيت المقدس على هذه الحالة حتى عمره عمر بن الخطاب؛ والآية مبطلة لإدعاء النصارى أنهم أهل الجنة؛ لأنهم سعوا في خراب بيوت الله بالهدم والتعطيل بسبب انقطاع الذكر، فالأصل أن يدخل هؤلاء النصارى القدس خائفين خاشعين طائعين فكيف تكون لهم الجرأة على حرقها وهدمها وإلقاء الأذى فيها؛ ومن معاني هذه الآية أن النصارى ومن على شاكلتهم لا يدخلون المسجد الأقصى وغيره إلا في حالة من الخوف والرعب من المسلمين متنكرين مسارقة، وفهم بعض الفقهاء من الآية ضرورة نهيهم عن دخول المساجد؛ فأبو حنيفة يرى دخولهم أي مسجد مطلقاً ومنعه الإمام مالك مطلقاً، وفرق الإمام مالك بين المسجد الحرام وغيره؛ فهؤلاء النصارى ومن فعل مثل فعلهم لهم خزي فظيع لا يوصف، يتمثل هذا الخزي في القتل والسبي والإذلال بضرب الجزية عليهم؛ ولهم بعد ذلك عذاب النار. (١٤)

بفهم من تفسير أبي السعود لهذه الآية أنه كان يستبطن ما يقوم به النصارى الصليبيون في المغرب والشمال الأفريقي من حرق للمساجد وتحويلها إلى كنائس وسبي ذراري المسلمين في بلاد الأندلس؛ ومن هنا كان يحض ويحرض ملوك وسلاطين وأمراء الدولة العثمانية على التصدي للنصارى؛ وكذلك ما فعله الشيعة

---

(١٣) ينظر: المصدر نفسه، (٢/ ٦٨)

(١٤) ينظر: أبو السعود ، مصدر سابق، ١/ ١٤٩.

الباطنية الصفيون من هدم مساجد أهل السنة وإلقاء القاذورات والأذى فيها؛ بل كان يخرج لجهاد هؤلاء بنفسه؛ ويتولى قضاء العسكر ويحرضهم بمثل هذه النصوص؛ مما شكل تحالفاً وتعاوناً بين العلماء وسلاطين الدولة العثمانية.

واختيار أبو السعود القاعدة التفسيرية التي ترى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب مكنه من تجاوز التاريخانية التي تحصر قراءة النص في سبب نزول محدد، في مكان محدد، وزمان محدد، وعلى أشخاص بعينهم؛ وهكذا استطاع بفهمه الواسع أن يقدِّم لدولة الخلافة العثمانية المبرر الديني لقتال النصارى ومن تعاون معهم من حكام البلاد الإسلامية؛ ومساعدة دول وممالك وإمارات الشمال الأفريقي وتخليصهم من الحكام المنافقين.

ثانياً: التنازع السياسي بين دولة الخلافة والدولة الصفوية في الشرق.

تعاونت الدولة الصفوية الشيعية الفارسية مع الصليبيين على محاربة الدولة العثمانية ونشر المذهب الشيعي في كل بلاد السنة، واحتلال الأراضي المقدسة عن طريق الحصار الاقتصادي والحروب العسكرية؛ وقد تعاون مع هذا الحلف بقايا العبيدين والإسماعيلية في مصر؛ وكتب النصر للسلطان سليم العثماني حامي المسلمين وبلاد الحرمين بدعم من العلماء والقضاة الذين أجمعوا على كفر وبطلان مذهب الشيعة؛ لأنه يقوم على سب الصحابة وتحريف القرآن، ويهدد الدولة العثمانية والعالم الإسلامي؛ وفرح الأوربيون بهذا الصراع؛ لأنه أوقف الزحف العثماني على أوربا؛ وبعد هذا النصر تفرغ السلطان سليم لحرب المماليك الذين تعاونوا سراً مع الشيعة الصفوية.(١٥)

يرى الباحث أن اشتراك العلماء والقضاة في هذه الحرب المقدسة فيه إشارة إلى المرجعية العقدية والفكرية التي كانت تقوم عليها الخلافة الإسلامية في صراعها

---

(١٥) ينظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٧٦، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ. وينظر: د. اسماعيل مكتبة العبيكان، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص٢٦، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. ، وينظر: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، (ص: ١٧٧)، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م وينظر: د. محمد نصر، الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، ص٢٤٠، وينظر: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ٢٧١)؛ دار المعرفة – بيروت، وينظر: د. نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، ص٤٣٥، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م٠ ، وينظر: المصدر السابق نفسه، ص٤٣٥، وينظر: محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن، ، ص١١٣، وينظر: د. محمد نصر، مرجع سابق، ص٢٤٦، وينظر: الصلابي، مرجع سابق، ص: ١٨١.

(١٥)ينظر: د. نبيل رضوان، مرجع سابق، ص٤٣٥، وينظر: البحراوي، مرجع سابق، ص١١٣، وينظر: د. محمد نصر، مرجع سابق، ص٢٤٦، وينظر: الصلابي، مرجع سابق، ص: ١٨١

مع الشرق الإسلامي الذي كان يقوم على عقيدة التشيع؛ فكلمات مثل الردة والكفر وحماية الحرمين والخلافة الإسلامية كان لها أثر كبير في تعبئة الشارع الإسلامي؛ خاصة وأن الشيعة كانوا يتعاونون مع أعداء الأمة؛ بل وقلَّ ما تتحد الشيعة الإثنى عشرية مع الشيعة الإسماعيلية إلا إذا كان العدو أهل السنة والجماعة.

والاعتماد على الرؤى الصالحة لأولياء الله الصالحين في وضع الخطط العسكرية واستشراف المستقبل فيه مؤشر قوي يدل على النزعة الدينية الروحية لملوك وسلاطين ووزراء دولة الخلافة العثمانية.

وردت عبارات في تفسير أبي السعود تكشف موقفه من الشيعة، وكيف أنه كان يشير إلى الواقع السياسي من خلال النص القرآني ومن ذلك قوله تعالى: { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} سورة الأحزاب: آية: (٣٣).

يرى أبو السعود أن {أَهْلَ البيت} مُراداً بهم من حَواهم بيتُ النُّبوة، والآية حجة بينة نيرة تبطل رأي الشيعة الذين يحصرون مصطلح (أهل البيت) في فاطمة وعلى وابنيهما فقط، بل نساء النبي ﷺ يدخلن في هذا (أهل البيت)، وأمَّا ما تمسكوا به من أن رسول الله ﷺ خرجَ ذاتَ غُدوةٍ وعليه مرط مرجل من شَعَرٍ أسودَ وجلسَ فأتتْ فاطمةُ فأدخلَها فيهِ ثم جاءَ عليٌّ فأدخلَه فيه ثم جاء الحسنُ والحسينُ فأدخلَهما فيهِ ثمَّ قال إنَّما يُريد الله ليُذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ". [١٦]فإنَّما يدلُّ على كونِهم من أهلِ البيتِ لا على أنَّ من عداهم ليسُوا كذلك ولو فُرضت دلالتُه على ذلك لما اعتدَّ بها لكونِها في مُقابلةِ النَّصِّ. [١٧]

ويلاحظ أن أبا السعود يرد الحديث في مقابل نص القرآن بالرغم من أن الحديث جاء في كل الصحاح عدا البخاري؛ وفي هذا دليل على العداء مستحكم بين الشيعة والدولة العثمانية، وأن الحروب التي كانت تقع بين دولة الخلافة العثمانية والدولة الصفوية لم تكن بعيدة عن الصراع العقدي والفكري والفقهي.

ومن ذلك قوله تعالى: { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

---

[١٦] ( ) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦ / ١٤٥) برقم: (٢٠٨١) ، (٧ / ١٣٠) برقم: (٢٤٢٤) .

[١٧] ( ) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (٧/ ١٠٣).

يرى أبو السعود إن القوم أولي البأس الشديد هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وغيرهم من الأعراب الذين ارتدوا عند وفاة رسول الله ﷺ وخيرهم أبو بكر إما الإسلام لا غير، وإما المقاتلة أبداً؛ وغيرهم يفرض عليه الجزية؛ وفي هذه الآية دليل واضح على إمامة أبي بكر؛ لأنه هو الذي قاتل المرتدين. (١٨)

يفهم من الدلالة والإشارة التي استنبطها أبو السعود ليثبت بها صحة إمامة أبي بكر رضي الله عنه؛ أنه كان يرد على الرافضة الزاعمين بأن أبا بكر ضال كافر بسبب نزعه الخلافة من علي كرم الله وجهه؛ وفي هذا الاستنباط تقوية لجهود سلاطين الدولة العثمانية ضد شاه إسماعيل الرافضي الصفوي ومن شايعه، الذين كانوا يكفرون جملة من الصحابة رضي الله عنهم وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

ثالثاً: التنازع السياسي بين دولة الخلافة و دولة المماليك:

تسيطر دولة المماليك على الشام ومصر، وتعاونوا مع الحلف الشيعي الصليبي ضد دولة الخلافة العثمانية، بل وتعاونوا مع بعض الأمراء العثمانيين الخارجين على طاعة السلطان سليم لحربه؛ وقد كتب علماء الشام وفقهاء المذاهب الأربعة والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي والشعب إلى السلطان سليم ليخلصهم من المماليك ويضم الشام إلى دولة الخلافة العثمانية؛ لأن المماليك يخالفون الشريعة ويأخذون النساء والأولاد والمال دون وجه حق؛ ويتعاونون مع الكفار. (١٩)

يفهم من هذا أن دولة الخلافة العثمانية كانت تتمتع بتأييد كبير من العلماء والشعب؛ وهذا ما جعل أبا السعود يشير في تفسيره إلى مظاهر الظلم هذه، والتعاون بين الحكام والأمراء المنافقين والصليبيين ضد الخلافة الإسلامية.

لقد قام علماء وفقهاء مصر بمكاتبة السلطان سليم العثماني طالبين منه دخول مصر وطرد الجراكسة المماليك؛ فإن ذلك سوف يقطع الطريق على البرتغاليين والصليبيين حتى لا يسيطروا على البحر الأحمر والبحر الأبيض والمناطق المقدسة في ظل فساد وظلم وعمالة وعجز حكام المماليك؛ وقد استجاب السلطان سليم وأوقف زحفه على مناطق الرافضة الصفويين والبرتغاليين الفجار بناء على فتوى من علماء

---

(١٨) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٨/ ١٠٩.

(١٩) ينظر: د. علي حسوان، مرجع سابق، ص٥٦،٥٧، وينظر: تاريخ العرب مجموعة من العلماء، ص٣، وينظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص٤٣٧، وينظر:د. نبيل رضوان، القوة العثمانية بين البر والبحر، ص١١١، وينظر: الصلابي، مرجع سابق، (ص: ١٨٥).

الأمصار والأعصار ليستولي على مصر ويخلص أهلها من ظلم المماليك الذين خالفوا الشرع؛ وقد اطلق على السلطان سليم خليفة الله في طول الأرض وعرضها قبل أن يسيطر على مصر والحجاز والشام. (٢٠)

يشير دور العلماء والقضاة والفقهاء إلى مكانتهم عند سلاطين الدولة العثمانية؛ وأنهم كانوا هم الذين يحررون الفتاوى لهم؛ وبالطبع في مقدمتهم أبو السعود سواء كان في عهد السلطان سليم أو السلطان سليمان.

المحور الثالث: موقف دولة الخلافة الإسلامية العثمانية من التصوف

يعد منهج التفسير الرمزي الإشاري من أهم مناهج تفسير القرآن الكريم؛ وهو منهج مرتبط بعلماء التصوف من أمثال الجنيد والكيلاني وابن عربي وغيرهم، ولم يكن أبو السعود في معزل من هذا الفكر الذي ساهم في سياسة دولة الخلافة الإسلامية.

كان سلاطين الدولة العثمانية لهم اعتقاد وتعلق بالأولياء الصالحين؛ لأن دعوتهم مجابة ولهم كرامات، ويعتمدون عليهم في تأويل الرؤية المنامية ويؤسسون على ذلك سياسات. (٢١)

وترد عبارات وإشارات في مقدمة تفسير أبي السعود يشير فيها إلى الغاية والغرض الذي ألف من أجله هذا التفسير، ويثبت فيه هذه النزعة الصوفية.

يرى أنه ألفه ليهديه للسلطان الذي يصفه بأن الله خصه بأن يكون خليفته في الأرض، ووارث الخلافة الكبرى المتحدرة إليه من جدوده وآبائه، وأن الله قد أيده لهزيمة الجبابرة المستكبرين من الفراعنة والقياصرة والأكاسرة حتى بلغ ملكه معظم أرجاء الكرة الأرضية شرقاً وغرباً وبراً وبحراً، سلطان العرب والعجم والروم وسلطان المشرقين وخاقان الخافقين الإمام المقتدر بالقدرة الربانية والخليفة المعتز بالعزة السبحانيه المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين وحماية المقامين الجميلين المفخمين، ناشر القوانين السلطانية، عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان، السلطان سليمان خان بن السلطان المظفر المنصور والخاقان الموقر المشهور صاحب المغازي المشهورة في أقطار الأمصار والفتوحات المذكورة في

---

(٢٠) ينظر: د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٧١،١٧٠؛ دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. وينظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص٧٠، وينظر: الصلابي، مرجع سابق، ص: ١٨٧.

(٢١)ينظر: محمود المقدشي، مصدر سابق، ٢/ ٦٩.

صحائف الأسفار السلطان سليم خان بن السلطان السعيد، والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى إنتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة في روضة الرضوان. (٢٢)

يقصد أبو السعود بقوله الجبابرة المستكبرين من الفراعنة والقياصرة والأكاسرة كلاً من شاه إسماعيل الرافضي الباطني؛ إذ أنه من بلاد فارس بالرغم من ادعائه الإسلام، ويقصد بالفراعنة الغوري في مصر بالرغم من أنه حكم باسم الإسلام، ويقصد بالقياصرة النصارى؛ فمثل هذا الوصف يحمل الشعب على تأييد السلطان سليمان في حروبه ضد هذه الجبهات؛ وهكذا يكون المفسر قد تأثر بما يجري حوله؛ خاصة إذا علمنا أن أبا السعود كان يخرج بنفسه في مقاتلة كل هذه الجبهات، وتولى قضاء العسكر.

ويثبت في الجانب الآخر أن السلطان سليمان مؤيد بالقوة الربانية؛ وخادم الحرمين، وفي هذا الوصف ما يجعل الشعوب في كل أقطار العالم الإسلامي تقف مع السلطان في حروبه ضد من بدلوا الشرع؛ وبهذا يكون أبو السعود قد ساهم بتفسيره الذي ألفه من أجل السلطان سليمان قد ساهم مساهمة كبيرة في نصرة الدولة العثمانية، واستحق العطايا السلطانية المتمثلة في تولي المناصب والخلع السنية، مع ما في هذا التقديم من نزعة صوفية واضحة.

ويذكر أبو السعود أن من الأسباب التي جعلته يتأخر في كتابة تفسيره بجانب انشغاله بالقضاء والجهاد في سبيل الله؛ أنه كان يبحث عن خلوة وفراغ وقت ينقطع ويتبتل فيه إلى الله ويوجه سره وعلانيته إليه حتى يمنحه القدرة على رؤية كل شيء بعين الشهود، ويتعرف على سر الحق في كل موجود؛ فإن هذا يعوضه كل ما فات وما هو آت حتى يتم تفسيره(٢٣)

يعلم من كلامه أنه يؤمن بالجمعية مع الله وشهود الحضرة؛ وأن تفسيره هذا فيه العلم اللدني؛ وربما كان هذا يكسبه قبولاً عند السلطان؛ إذ كانت الدولة العثمانية ترعى التصوف.

كان السلطان بايزيد من العباد المرتاضين بالعبادة، السالكين في مقامات اليقين، فقد دخل الخلوة فارتضاد بها، ودخل معه مولانا الشيخ محيي الدّين ياوضي

---

(٢٢) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (١/ ٥).

(٢٣)ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ١/ ٥.

أفندي، والد مولانا أبي السعود أفندي المفتي المفسّر؛ وكان يجري الرواتب الكبيرة على العلماء والمدرسين والطلاب ويؤسس الزوايا والتكايا [٢٤]

يلاحظ أن مصطلح دخول الخلوة من المصطلحات الصوفية؛ ودخول والد المفسر أبي السعود الخلوة مع السلطان فيه دلالة وإشارة إلى البيئة المعرفية الدينية التي تربى فيها المفسر أبو السعود؛ مما جعل له نزعة صوفية انعكست على تفسيره للنص القرآني، وتأييده ومناصرته لدولة الخلافة التي تؤمن بالتصوف.

فطلب أهل حلب من السلطان سليم الأمان وهم يحملون المصاحف ويجهرون بالتسبيح والتكبير، ويتلون: {وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى} (٣٨١)، فقابلهم بالإحسان والإكرام، وتصدّق بأنواع الصدقات، وحضرت صلاة الجمعة فخطب الخطيب باسمه الكريم، ودعا له ولآبائه وأسلافه، وبالغ في المدح والتّعريف، فلمّا سمع قول الخطيب في وصفه «خادم الحرمين الشريفين» سجد شكرا لله تعالى، وحمده أن يسر له بأن يكون خادم الحرمين الشريفين وينال هذا اللقب، فأكرم الخطيب؛ فأقام الحكم والسياسة وأحسن إلى العرب والعجم من كافة الأمم، ثم انتقل بجيشه من حلب إلى الشام، فعاملهم بمثل ما عامل به أهل حلب؛ ولعل بسبب نزعته الصوفية أمر بعمارة وإعادة تشييد قبة ابن عربي وبنى مطعما لضريحه وأجرى له أوقاف من أجل زواره والفقراء المجاورين للضريح وهذا الشّيخ محيي الدّين هو الّذي نوّه بشأن السّلطان سليم تنويها عظيما ونصّ عليه وعلى وقائعه وفتوحاته ونصره وتمكين الله له في الأرض، فمن جملة ما نصّ عليه ما وجد على قبره، وذلك أن السّلطان أوّل ما وصل إلى المدينة وجد عند بابها تلاً عظيما من مزابل النّاس الّتي يطرحونها خارج البلد حتى كادوا يزاحمون الباب ويغمرونه في المزابل، فأمر السّلطان بإزالة تلك المزابل في الحين ليفرج عن باب المدينة، فما زالوا يزيلون شيئا فشيئا حتى انكشف لهم قبر الشيخ، وإذا عليه مكتوب: إذا دخل السين الشين ظهر محيي الدّين، ففسّره أهل المعرفة بكلام الرّموز بأنه إذا دخل السّلطان سليم الشام ظهر أمر الشّيخ محيي الدّين فأظهر السّلطان أمر الشيخ غاية الظّهور، ولم يزل إلى الآن أمره قائما ظاهرا ببركته، وبركة السّلطان سليم - رحم الله الجميع ونفعنا بهم وببركاتهم وبركات أمثالهم. [٢٥]

([٢٤]) ينظر: محمود مقدشي، مصدر سابق، ٢/ ٣٢ وما بعدها.

([٢٥]) ينظر: محمود مقدشي، المصدر نفسه، ٢/ ٣٢ وما بعدها.

قال النّهروالي: «ولا شكّ أنّ روحانية الشّيخ - رضي الله عنه – يقصد ابن عربي- هي الّتي جلبت السّلطان سليم طيّب الله ثراه إلى سلطنة بلاد العرب، وحصل له الإمداد العظيم بالبركة والتأييد في حصول ما أمّله وطلب. . .». (٢٦)

يلاحظ أن الأتراك ملوكا وأمراء وشعباً يقدسون الصوفية كالشيح عبد القادر الجيلاني والشيخ محي الدين بن عربي.

ويجزم أبو السعود في تفسيره- متأثراً بالنزعة الصوفية- أن العبد الصالح في سورة الكهف هو نبي الله الخضر عليه السلام.

قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}. سورة الكهف: (٦٥).

التنكيرُ في كلمة (عبداً) للتفخيم والإضافةُ في كلمة(عبادنا) للتشريف، والجمهور على أنه الخضر، واسُمه بَلْيَا بنُ مَلْكَان، وقيل اليسع، وقيل إلياس عليهم الصلاة والسلام؛ {آتيناه رحمة من عندنا} هي الوحيُ والنبوةُ كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرحمة واختصاصُها بجناب الكبرياء {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} خاصاً لا يُكتنه كُنهُه ولا يُقادَرُ قدرُه وهو علمُ الغيوب. (٢٧)

ومن ناحية أخرى يرى بعض المؤرخين رؤية مغايرة، فهم يعترفون بالتصوف وأثره في دولة الخلافة العثمانية، ولكن دوره كان سالباً.

إن الصوفية قويت واشتد عودها في أواخر العصر العثماني، بسبب انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والجهل والمرض، وشيوخ الصوفية في مأمن من كل هذا مما جعل الفقراء يحتمون بسلطانهم، لأن السلاطين والحكام كانوا يعتقدون فيهم الصلاح ويخشونهم ويصدقون بولايتهم ويتبنون التصوف؛ ويجد هؤلاء الفقراء المأوي والمطعم والمشرب عند شيوخ الصوفية؛ وفي الوقت الذي كانت تشهد أوربا نهضة عليمة كان التصوف ينشر في العالم الإسلامي عقيدة القضاء والقدر بتفسير يؤدي إلى الجمود والتخلف؛ وكان تدريس كتابيّ (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ(ابن عربي) وغيرها من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التي لا

---

(٢٦) ينظر: النهرواني، الإعلام ص: ٤٧٩. وينظر: محمود مقدشي، مصدر سابق، (٢/ ٤٦)

(٢٧) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (٥/ ٢٣٤).

يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء.[٢٨]
.

ولكن الواضح أن هذه الرؤية تركز على التصوف الشعبي وليس التصوف السني؛ وهذه الرؤية فيها تجني ومبالغة لدور التصوف وأثره في المجتمع والدولة.

المحور الرابع: مفهوم الخلافة عند أبي السعود.

يشكل مصطلح الخلافة وشروط وضوابط الاستخلاف محوراً أساسيا في تفسير أبي السعود، وقد ورد مرات كثيرة في القرآن الكريم، وقد عاش هذا المفسر في ظل دولة الخلافة العثمانية، فكيف فسر هذه النصوص؟.

قال تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً}.

إن مهمة الخليفة كما يرى أبو السعود هي إجراء أحكام الله سبحانه وتعالى وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق؛ وإن هذه المهمة تحتاج لخليفة يكون واسطة بين الله وخلقه لقصور استعداد الناس فإنهم يعجزون عن تحمل فيض الذات الإلهي؛ ولهذا يختص لها ويصطفي من يشاء من أبناء آدم.[٢٩]

ويرى أبو السعود أن (الخليفة) هو من يخلف وينوب عن غيره، سواء كان آدم أو أبناؤه وذكر آدم يكفي عن ذكر ذريته، والخلافة الصادرة الواقعة من جهة الله يقصد بها إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق والله غير محتاج لذلك؛ ولكن لأن المستخلَف على الناس قاصر وهم أنفسهم، أي الناس لا قدرة لهم على تحمل وقبول الفيض المباشر من ذات الله جعلها الله لخاصة أبناء آدم، يقصد الرسل والأنبياء، ولو قصد بالخلاف ما كان قبل آدم من الخلق فهي تشمل الجميع. (٣٠)

يفهم من كلام أبي السعود أن الخليفة يجب أن يكون على قدر عال من الصفاء الروحي والعلم والمعرفة؛ لأنه هو ظل الله في الأرض؛ ولعل هذا ما يفسر لنا

([٢٨]) ينظر: د.علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص(٥١٣-٥١٩) ، وينظر: د. توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، ص١٥٤،١٥٢. ١٥٤، مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م، وينظر: علي بن نجيب الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، (٤٤٨/١، دار طيبة مكة، دار آل عمّار الشارقة، الطبعة الثانية،١٤١٨هـ/١٩٩٨م.وينظر: باول شمتز، الاسلام قوة الغد العالمية، ص٧٨، مكتبة هبة للطباعة والنشر، ١٩٩٨٣م،

([٢٩]) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ١/ ٨١.

([٣٠]) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه، (١/ ٨١)

ولع ملوك وسلاطين وأمراء الدولة العثمانية بالتصوف وأقطابه؛ ودخول السلطان سليم مع والد أبي سعود المفسر الخلوة؛ ومن هنا يدرك الباحث لماذا يطلق أبو السعود وغيره من علماء التفسير في كتبهم مصطلح (ظل الله في الأرض) على ملوك وسلاطين الدولة العثمانية.

وقال تعالى: {فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء}.

يرى أبو السعود أن من صفات الخليفة أن لا يكون عاجزاً عن التصرف والتدبير وإقامة العدل؛ ولا يتحصل هذه الصفات إلا من وقف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق؛ وهذا لا يتوفر في الملائكة؛ ويرى أبو السعود أن معرفة آدم كانت معرفة تفصيلية وليس إجمالية، بل وشاملة لكل خواص الأشياء وأحكامها المتعلقة بالمعاش والمعاد، ذكر ذلك للملائكة دون تلعثم؛ وفي الآية الكريمة دلالة على شرف الإنسان ومزية العلمِ وفضلِه على العبادة وأن ذلك هو المناطُ للخلافة.(٣١)

يستل أبو السعود هذه الشروط والضوابط والصفات لمن يريد أن يكون خليفة وفي ذهنه ملوك وسلاطين الدولة العثمانية الذين عاصرهم وقد توفرت فيهم معظم هذه الشروط والضوابط؛ وذلك مما شجعه على الانخراط معهم في تولي المناصب التشريعية والجهاد في سبيل الله.

وقال تعالى{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)

يرى أبو السعود أن جملة {اذ أَمَرْتُكَ} فيها دلالةٌ على أن مُطلقَ الأمرِ للوجوب والفور؛ فإبليس اللعين قد أدمج في معصية واحدة ثلاث معاص هي: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والإباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام، وقد وَبِّخ على كل واحدة منها؛ وأمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد أن ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن الله قد منحه وخصه بخواص ليست لغيره، وفي الآية دليل على الكون والفساد. (٣٢)

---

(٣١)ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه، ١/ ٨٥- ٨٨.

(٣٢)ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٣/ ٢١٦.

ويفهم الباحث من كلام أبي السعود أنه يسقط موقف إبليس على كل من تمرد على الخليفة من أمثال شاه إسماعيل الرافضي والغوري والصلبيين وغيرهم ممن خرج على خلفاء الدولة العثمانية.

إن أبا السعود كان يشير في تفسيره إلى بعض الشروط والضوابط التي يجب توفرها في الخليفة؛ والعلاقة بينه وبين الأمراء وحكام الأقاليم، فهو بذلك متأثر بواقعه السياسي؛ فمثلاً عند تفسير قوله تعالى{ طه ٩٤ ٩٦ {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى}: يرى أن من يستخلفه الخليفة من بعده يجب أن يكون صلباً في الدين وله قدرة على المحاماة عن الدين، فإن الخلافة لا تتحقق إلا إذا كان المستخلف قام بما كان يقوم به الخليفة الأصل. (٣٣)

وقال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}. (٢٦)

يرى أبو السعود أن الاستخلاف هنا يشمل الاستخلاف على الملك في الأرض ليحكم بين أهلها، وقد يراد به أنه خليفة لجملة من الأنبياء الذين سبقوه وقاموا بالحق؛ فالخلافة بكلا المعنيين تقتضي الحكم بالحق. (٣٤)

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} سورة البقرة: آية: (١٤٣)

يرى أبو السعود إن العدالة التي هي شرط في الشهادة على الناس تتألف وتتكون من العفة التي هي فضيلة القوة الشهوية البهيمية، ومن الشجاعة التي هي فضيلة القوة الغضبية السبعية، ومن الحكمة التي هي فضيلة القوة العقلية المَلَكية؛ ويجمع مع ذلك الإحاطة بأحكام الدين، وأحوال وتاريخ الأمم أجمعين. (٣٥)

---

(٣٣) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه، (٦/ ٣٨)

(٣٤) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٧/ ٢٢٣.

(٣٥) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ١/ ١٧٢.

يفهم من كلام أبي السعود أن له ثقافة واسعة وذلك عندما يوظف فضائل القوى الشهوية والغضبية والعقلية ومرجعية القرآن والتاريخ؛ يوظف كل ذلك لبناء الشخصية المسلمة التي يجب أن تكون شاهدة على الأمم في وقت بدأ علماء الغرب يتخلون عن الدين ويعلنون الحرب على الكنيسة.

وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} سورة الكهف: آية: (٨٣).

يشير أبو السعود أن ذا القرنين المراد في هذه الآية هو رجل مؤمن كان عبداً صالحاً وملكا عادلاً ووزيره الخضر؛ هذا بخلاف الإسكندر الكافر الذي كان وزيره أرسطاطليس الفيلسوف؛ وأنه أي أبو السعود قد وقف على مقدونية المنسوب إليها الإسكندر المقدوني وهو راجع من بعض المغازي، وهي من بلاد الروم غربيَّ دارِ السلطنة السنية قُسطنطينيةَ المحمية. (٣٦)

فكون الخضر الذي اختص بعلم اللدوني وزيراً لذي القرنين فيه إشارة واضحة لما جرت عليه عادة ملوك وسلاطين دولة الخلافة العثمانية من اتخاذ العلماء والصالحين مستشارين، ولعل هذا- كما يعتقد أبو السعود- يمثل جزءاً من شروط استتباب الأمن وعوامل النصر لدولة تنشد النصر والتمكين.

وقال تعالى {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} (٢١)

الخزائن جمع خزينة وهي ما يحفظ فيه نفائس الأموال فقط، ولكن كلمة(الخزائن) في العرف يراد بها ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس؛ وهذه الخزائن الإلهية لا حصر لها وتقع تحت قدرة الله الشاملة وهي مستورة ومصونة عن وصول أيدي الناس إليها وهم في أشد الحاجة إليها فقراً ورغبة، ومع هذا لو تعلقت إرادة الله بوجودها لوجدت دون تأخير؛ وهي بذلك تشبه نفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية. (٣٧)

يفهم الباحث أن أبا السعود يستفيد من المصطلحات الاقتصادية في شرح آيات الله، ويفهم من هذا التشبيه المستل من البيئة أن سلاطين الدولة العثمانية كانت

---

(٣٦)ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٥/ ٢٤١.

(٣٧)ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (٥/ ٧٢)

لهم خزائن تحتوي على نفائس الأموال، وكانت تنسب إلى الأموال؛ وهم متحكمون فيها لا يستطيع فرد من أفراد الشعب أن يصل إليها.

المحور السادس: موقف أبي السعود من مفهوم المواطنة في دولة الخلافة العثمانية:

إن كثيراً من أهل الأديان الأخرى كانوا يعيشون في ظل الخلافة العثمانية، وأبو السعود كان قاضياً ومفتياً تنقل في كل ممالك الدولة، فكان لابد أن يتبع فقه الدولة والسياسة الشرعية في تفسيره للآيات التي تتعلق بمكونات المجتمع من غير المسلمين.

أولاً: وضع غير المسلمين في دولة الخلافة.

ضمت دولة الخلافة الإسلامية كل أهل الأديان وكذلك الكفار، وللمفسرين أقوال متباينة في تفسير النصوص التي توضح العلاقة معهم؛ وكان لخلفاء وسلاطين وأمراء الخلافة الإسلامية سياسة تجاه هذا التباين ورؤية تشكلت بالاستعانة بفهم علماء الأمة، ومنهم أبو السعود، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال بعض النصوص من باب التمثيل لا الحصر:-

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} سورة البقرة: آية ٨٥.

يرى أبو السعود أن الخطأ الذي وقع فيه اليهود أنهم يؤمنون ببعض الكتب السماوية ويكفرون ببعضها ومنها القرآن الكريم؛ وقد يكون المقصود القتل لبعضهم والإجلاء مع مفاداة الأسارى. (٣٨)

وحالة اليهود الذين يقتلون بني جلدتهم ومن هو على دينهم فيها تعريض ببعض الملوك والسلاطين والأمراء المسلمين الذين كانوا يتعاونون مع غير المسلمين في قتل المسلمين، مثل حالة السلطان إسماعيل الرافضي الصفوي الذي كان يتعاون مع البرتغاليين الكفار الصليبيين؛ وفي ذلك مبرر لملوك وسلاطين الدولة العثمانية في شن غاراتهم على ملوك إيران الشيعة، والغوري حاكم مصر والشام، وغيرهم من إمراء شمال إفريقيا الذين تعاونوا مع الصليبيين.

(٣٨) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٧/ ٢٣٧.

وقوله: {إِلاَّ خِزْيٌ} يتمثل في الذل والهوان مع الفضيحة، وتنكير خزي في هذه الآية قصد به التفخيم المتمثل في قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير إلى أَذْرِعاتَ وأريحاءَ من الشام، وقد يراد بذلك الجزية؛ والمقصود بقوله {فِي الحياة الدنيا} ليقطع الله أطماعهم الفارغة التي يتوقعونها من إيمانهم ببعض الكتاب وليعلموا أنه لا ثمرة لهذا الإيمان المُبَعَّض؛ إذ كيف ينفعهم إيمان مع كفر؛ وأشد العذاب الذي سوف يلحقهم في الدنيا هو الخزي والصغار، ولا تنافي بين العذاب الذي يلحقهم في الدنيا والذي سوف يلحقهم في الآخرة؛ فالله غير غافل بكل قبائحهم وفي مقدمتها هذا الإيمان المُبَعَّض. (٣٩)

يفهم من تركيز أبي السعود على معاني الخزي المتمثل في القتل والإجلاء من الديار، وخلل المنهج عند اليهود، وأن هذا العذاب لليهود كائن في الدنيا والآخرة، يفهم من كل ذلك أن سلاطين الدولة العثمانية وغيرهم لن يجدوا حرجاً في نفي وقتل اليهود إذا نقضوا العهود، وسعوا إلى زعزعة الخلافة العثمانية، وما يتبع لها من ممالك؛ وأن ضرب الجزية عليهم أمر مقبول شرعاً.

قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)}.

يرى أبو السعود أن معنى {كَفَّاراً} يصيركم اليهود أيها المسلمون كفاراً عن طريق القسر؛ وذلك الفعل الشنيع مستحيل وبعيد؛ لأن الكفر عند المؤمنين قبيح، ولرسوخ إيمان المؤمنين؛ وعلة مودة هذا الكفر للمؤمنين هو الحسد الجماعي من قبل اليهود؛ لا لأنهم يحبون لكم الحق فالحق قد اتضح بالألة والبراهين والحجج الواضحة خاصة تلك التي في كتبهم؛ والمؤمنون مطالبون بالعفو المتمثل في ترك المؤاخذة والعقوبة، والصفح المتمثل في ترك التثريب والتأنيب حتى يأتي أمر الله، وهو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير، وإذلالهم بضرب الجزية عليهم؛ وإعطاء المسلمين الإذن لقتالهم، والآية منسوخة بآية السيف. (٤٠)

يفهم من كلام أبي السعود أنه يرى أن ترك المؤاخذة والعقوبة، ووترك التثريب والتأنيب لليهود أمر منسوخ بآية السيف؛ فلا بد من جهادهم، وبهذا الاختيار

---

(٣٩) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، (١/ ١٢٦).

(٤٠) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،١/ ١٤٦.

يجد ملوك وسلاطين وأمراء الدولة العثمانية المبرر القوي في شن الحروب على اليهود.

وقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. سورة البقرة (٢٥٦)

يرى أبو السعود أن الآية تشير إلى أن الله وحده هو المتفرد بالشئون الجليلةِ الموجبةِ للإيمان به؛ وأن من حق العاقل أن لا يحتاج إلى التكليف والإلزام بل عليه أن يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم؛ وقد يفهم أن النص خبر في معنى النهي ويقصد به لا تكرهوا أحداً في الدين؛ وجاء قول ضعيف أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: { وجاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم)، وقول ضعيف آخر أنها خاصة بأهل الكتاب؛ لأنهم حصنوا أنفسهم بالجزية، وهناك رواية ضعيفة تشير إلى أن أحد الأنصار كان له ابنان قد تنصَّرا قبل البعثة فأرغمهما على الإسلام فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت فخلا سبيلهما. (٤١)

يفهم من كلامه أنه لا يرى النسخ لهذه الآية؛ والمتتبع لوضع غير المسلمين في الدولة العثمانية يرى أنهم لم يكرهوا على الإسلام؛ ولعل مثل هذا الفهم المتقدم لأبي السعود الذي أهدى تفسيره إلى السلطان سليمان، ومساهمته في وضع قوانين دولة الخلافة يدل على هذا الفهم المتقدِّم في قضية الحريات والحقوق الأساسية.

وقال تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)}.

يعيش في المجتمع المسلم منذ ظهور الإسلام عدد من أهل الأديان الأخرى، ومنهم أهل كتاب مثل اليهود والنصارى الذين أحلَّ الله للمسلمين أن يأكلوا طعامهم ويتزوجوا نساءهم؛ ولكن تباينت أقوال الصحابة والفقهاء من بعدهم في اعتبار بعض الطوائف من غير اليهود والنصارى هل يعاملون مثل اليهود والنصارى؟ أم هم مشركون؟.

أورد أبو السعود قول علي بن أبي الطالب الذي يرى أن نصارى بني تغلب من العرب لا يدخلون في مسمى أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وعليه لا يجوز أكل طعامهم ولا زواج نسائهم؛ وحجته في ذلك أنهم لم يأخذوا من دين النصارى إلا

(٤١) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ١/ ٢٤٩.

شرب الخمر، وأخذ بهذا القول الإمام الشافعي، بينما ورد عن ابن عباس أنه لا بأس من ذبائح نصارى العرب؛ وبفتوى ابن عباس هذه أخذ عامة التابعين وأبو حنيفة الذي يرى أن حكم الصابئين مثل حكم نصارى العرب وأهل الكتاب؛ وفرق تلاميذ أبي حنيفة بين الصابئة الذين يقرؤون الزبور ومع هذا يعبدون الملائكة فهؤلاء يأخذون حكم أهل الكتاب ونصارى العرب، وطائفة من الصابئين لا يقرؤون الكتاب ومع هذا يعبدون الملائكة فهؤلاء لا يدخلون في مسمى أهل الكتاب؛ وعليه لا تحلَّ نساؤهم ولا ذبائحهم؛ وأما المجوس فلم يقع فيهم الاختلاف لوجود نص حديث رسول الله ﷺ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ : مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : " سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ". (٤٢)(٤٣)

يفهم من خلاصة ما ذهب إليه أبو السعود ومن ميله إلى قول ابن عبس والذي أخذ به معظم التابعين والأحناف أنه يرى التوسع في التعامل مع نصارى العرب والمجوس، وأن الأفضل أن يقاسوا على أهل الكتاب، وفي ذلك إشارة إلى مرونة علماء الدولة العثمانية في استيعاب المكونات الأخرى في المجتمع المسلم؛ خاصة وأن هناك حالة استقطاب حاد من قبل الروافض والصلبيين للشعوب التي تعيش في كنف الدولة العثمانية؛ فقد أثبتت التجارب التاريخية أن عدم عزل هذه المكونات- بحجة اختلاف الدين- والزواج منهم أدى إلى انصهارهم في المجتمع المسلم.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)

يرى أبو السعود إن الغضب والذلة تفيد التنوع في العقوبات بسبب عظم وقبح جرائمهم، المتمثلة في ذلة الاغتراب والمسكنة الواقعة عليهم وعلى أولادهم من بعدهم، والقتل والتشريد؛ وأن بقاياهم من أحفاد السامري موجودة إلى اليوم؛ إذا مس واحد منهم من ليس من جماعته اصابت الحمى جميعهم. (٤٤)

---

(٤٢) الإمام مالك كتاب الموطأ، ١/ ٣٩٥.

(٤٣) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٩/٣.

(٤٤) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٣/ ٢٧٥.

يفهم من إشارة أبي السعود أن بقاياهم موجودة إلى اليوم أن ما يقع على أهل الحرب من أهل الكتاب من قتل وتشريد ونزوح وتهجير هو وعيد من الله وسنة لا تتخلف؛ وأن حكام وملوك وسلاطين وأمراء الدولة العثمانية إنما بنفذون أمر الله في أهل الكفر والشرك وعباد الأوثان؛ ومن هنا يتضح لماذا رفض السلطان عبد الحميد المساومة في فلسطين.

وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}. (١٦٧)

يرى أبو السعود أن وعيد الله لليهود أن يسلط عليهم من يذلهم ويضرب عليهم الجزية وغير ذلك قد تحقق منذ بُختَ نَصّر فخرّب ديارهم وقتل مقاتِلتَهم وسبى نساءَهم وذرارِيَهم وضربِ الجزية على مَنْ بقي منهم، وكانوا يؤدّونها إلى المجوس حتى بعث النبي ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب الجزيةَ عليهم فلا تزال مضروبةً إلى آخر الدهر. (٤٥)

ويفهم من ربط أبي السعود تاريخ اليهود وما يقع لهم من أسر وتشريد وجزية وسبي من قبل كل الأمم وليس المسلمين وحدهم يفهم من ذلك أنه يقدِّم التبريرات لمنهج ملوك وسلاطين الدولة العثمانية تجاه كل من يسلك سلوك اليهود.

وقال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

يرى أبو السعود إن قتال أهل الكتاب ثبت مثل قتال المشركين؛ لأن اليهودَ مُثَنّيةٌ والنصارى مُثلِّثةٌ، ولا يدينون بدين الإسلام الناسخ لكل الأديان، ويمنع التوكيل في دفع الجزية لمزيد من الانقياد والإذلال؛ ويرى مالك أن الجزية تؤخذ من جميع المشركين خلافاً لبقية المذاهب. (٤٦)

إشارة أبي السعود للفقه المالكي الذي يرى أخذ الجزية من جميع المشركين ربما يقصد به أبو السعود وضع المسألة ضمن دائرة فقه الاختيار الذي يعطي مساحة واسعة للمشرع لاختيار ما يراه مناسباً في إطار السياسة الشرعية.

---

(٤٥) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٣/ ٢٨٧.

(٤٦) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٤/ ٥٨.

ثانياً: المعاهدات والمواثيق والعلاقات الدولية.

جاءت جملة من الآيات تحدد العلاقات السياسية بين المجتمع المسلم وغيره في حالة السلم وحالة الحرب من عهود ومواثيق ؛ وقد ترد تفسيرات للنص القرآني تترتب عليها سياسة الدولة، ومن هنا يقع تأثر الملوك والسلاطين والأمراء بفهم العلماء لهذه النصوص.

لم تكن الدولة العثمانية التي ينتمي إليها أبو السعود في معزل من التحالفات الدولية مع الكفار ضد الكفار، وكان ملوك وسلاطين الدولة العثمانية يستشيرون العلماء والمشايخ والأولياء والصالحين حول هذه الأمور لمعرفة رأي الشرع.

كتب ملك فرنسا (فرانسوا الأول) رسالة إلى السلطان سليم القانوني يطلب منه أن يتحالف معه ضد إمبراطور إسبانيا والغرب، وقد أجابه السلطان سليمان بعد أن كتب له رسالة ضافية أظهر له قوة الدولة العثمانية واتساعها الجغرافي، وأنه هو ظل الله في الأرض. (٤٧)

قال تعالى : {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

يذهب أبو السعود أن كلمة(لعناهم) في هذه الآية المترتبة على نقض أهل الكتاب للمواثيق والعهود مراد بها الطرد والإبعاد من رحمة الله ومسخهم قردة وخنازير، وإذلالهم بضريبة الجزية عليهم؛ فقلوبهم القاسية لا تتأثر بالآيات والنظر، والتعبير بصيغة المضارع في قوله(يحرفون الكلم) يدل على التجدد والاستمرارية؛ فوجودهم إلى عهد رسول الله ﷺ يدل على أن الخيانة المتمثلة في نقض العهود والمواثيق عادة لا تفارقهم أبداً؛ فإن التعامل مع من هذا حاله هو الصفح والعفو في حالة التوبة والإيمان أو في حالة التزموا بإعطاء الجزية ، وقيل كل هذا منسوخ بآية السيف؛ وقوله {إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين} تعليلٌ للأمر وحثٌّ على الامتثال به وتنبيهٌ على أنَّ العفوَ على الإطلاقِ من باب الإحسان. (٤٨)

---

(٤٧)ينظر: سلسلة حماد شعب الجزائر (١/ ١٩٧- ١٩٨.

(٤٨)ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٣/ ١٦.

يفهم من كلام أبي السعود أن على الملوك والسلاطين والأمراء أن يتمسكوا بفرض الجزية على أهل الكتاب، وأن يكونوا على حذر منهم فإن من عادتهم نقض العهود والمواثيق؛ وقد شهدت الحياة السياسية مثل هذه التقلبات خاصة في الحرب مع أوربا الصليبية وحكام دول شمال أفريقيا الذين كانوا يساندون نصارى أوربا في صراعهم مع الدولة العثمانية.

قال تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } سورة الإسراء: آية: (٨).

يرى أبو السعود إن عودة بني إسرائيل يقصد بها رجوعهم إلى الفساد، وعودة الله هي إلى عقوبتهم؛ وذلك بتسليط الأكاسرة عليهم فيضربوا عليهم الإتاوة، وقد سلط الله عليهم رسول الله ﷺ فضرب عليهم الجزية. (٤٩)

يفهم من كلام أبي السعود إن سياسة الجزية التي يفرضها سلاطين وأمراء الدولة العثمانية وقبلهم الدول الإسلامية على مر العصور، وقبل ذلك الأكاسرة وهم ملوك الفرس؛ يفهم من تلك الجزية هي مقابل كفرهم وعدم إيمانهم وفسادهم؛ فلم يكن حكام الدولة العثمانية بدعاً من غيرهم؛ فمن هذا حاله جاز- من باب السياسة الشرعية- أن يتحالف المسلمون مع بعض الكفار لضرب من ينقض العهود والمواثيق ويهدد استقرار الدولة.

وقال تعالى {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. سورة الأنفال: آية: (٦١)

يرى أبو السعود أن الخطاب في الآية خاص باليهود، الذين يظهرون السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد؛ وقد تكون عامة منسوخة بآية السيف. (٥٠)

يلاحظ أن أبا السعود كثيراً ما يورد آية السيف التي يفهم منها القطع الكامل للعلاقة مع الآخر، والنهي عن إبرام العهود والمواثيق معهم كثيراً ما يورد ذلك بصيغ التضعيف مثل كلمة قد وروي وقيل.

وقال تعالى : {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} سورة الإسراء: آية:(٥٤).

---

(٤٩) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٥/ ١٥٨.

(٥٠) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٤/ ٣٣.

الخطاب في الآية يحض النبي ﷺ وأصحابه على عدم اسماع الكفار بأنهم من أهل النار فإن ذلك يهيجهم على الشر، والعاقبة لا يعلمها إلا الله؛ إذ قد يهديهم إلى الإيمان؛ فلا أحد بمقدوره قسر أحد على الإيمان؛ فمهمة النبي ﷺ والدعاة هي التبشير والإنذار، والمطلوب المداراة والاحتمال وترك المُحاقّة والمشاقّة؛ وكل هذا قبل نزول آية السيف. (٥١)

يفهم من هذا أن أبا السعود كثيراً ما يميل إلى فهم النص القرآني المتعلق بالتعامل مع الآخر إلى القول بالنسخ بآية السيف، ولكن إيراده لهذا القول بصيغة التضعيف(قيل) يجعل الباحث يحكم عليه أنه يقبل المنهجين، منهج التعامل بالحسنى مع غير المسلمين ومنهج الشدة؛ وعلى هذا فإن المسألة تقع في دائرة السياسة الشرعية؛ فالرجل متأثر بالبيئة التي عاشها؛ إذ شهد عصره حروباً كثيرة كانت تأخذ الطابع الديني والسياسي.

ومن هنا يمكن فهم طبيعة السياسة الخارجية لدولة الخلافة الإسلامية العثمانية؛ فإنها قامت على أحلاف وتعاهدات أسستها وفق السياسة الشرعية والمصالح العليا للشعوب المسلمة؛ ولم تكن آية السيف عندهم تمنع مثل هذه التحالفات والعهود والمواثيق مع الآخر.

وقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}. (٨٥)

يرى أبو السعود أن الآية فيها أمر للمؤمنين بأن يعرضوا عن الكفار إعراضاً جميلاً يتضمن تحمُّل أذاهم ولا يتعجل المسلمون بالانتقام من الذي يكذب بهذا الدين؛ بل يعاملون معاملة الصفوح الحليم وقيل هي منسوخة بآية السيف. (٥٢)

وكلمة(قيل) يفهم منها أن الأصل في العلاقات الدولية تحمل الأذى والصفح والحلم والإعراض الجميل وعدم الانتقام؛ وليس كما يفهم البعض أن هذه القيم نسخت بآية السيف.

المحور السابع: موقف أبو السعود من النهضة الأوربية وعصر التنوير.

---

(٥١) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،٥/ ١٧٨.

(٥٢) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٥/ ٨٨.

تزامن عصر أبي السعود مع عصر النهضة الأوربية خاصة في مجال العقائد؛ وذلك عند ظهور مارتن لوثر المتوفى سنة ١٥٤٦م أي قبل أبي السعود؛ ودعا مارتن لوثر إلى مقاومة استعمال الطقوس والصور والتماثيل وعارض فكرة عزوبة رجال الدين وفتح باب المسؤولية الفردية في المعتقد. (٥٣)

عرف عن سلاطين وملوك الدولة العثمانية أخذهم بالأسباب المادية؛ وقد تأثروا بالغرب خاصة أوربا؛ ولهذا توجد إشارات كثيرة لمصطلحات ومعاني هذه النهضة في تفسير أبو السعود، وقد أفلح في توظيفها لتفسير وتجلية النص القرآني بما يؤصل للدولة العثمانية في أخذها بأسباب الرقي المادي.

قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} سورة البقرة: آية (٣٠).

يرى أبو السعود أن اعتراض الملائكة على خلافة آدم عليه السلام مردها إلى خوفهم وخشيتهم من سفكه هو وذريته الدماء وهو أقبح أنواع القتل؛ مع وجودهم هم الذين ليس من طبعهم سفك الدماء بل التسبيح، قالوا هذا لا من باب العجب والتفاخر، بل شعروا أن آدم عليه السلام فيه القوة الشهوية وهي سبب الإفراط في الفساد في الأرض، والقوة الغضبية وهي سبب الإفراط في سفك الدماء؛ ولم يدركوا أن القوة العقلية إذا سخرت القوة الشهوية والقوة الغضبية ومرنتهما على الخير ترقى الإنسان في مدارج الكمال؛ فالقوة العقلية عندما تنفرد دون الاستعانة بالقوة الشهوية والقوة الغضبية لن تستطيع أن تحيط بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من الوجود. (٥٤)

يلاحظ أن مصطلحات مثل القوة الشهوية والغضبية والعقلية واستنباط الصناعات ومنافع الكائنات هي كلمات جديدة تشبه عصر أبي السعود؛ وكأنه يشير إلى أن بلوغ الكمال على مستوى الفرد والدولة لا يكون إلا بالجمع بين الجانب الروحي والمادي؛ وقد تزامن عصره مع ثورة مارتن لوثر الذي سعى لنقد الكنيسة في موقفها من الثورة الصناعية.

---

(٥٣) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٦١٦).

(٥٤) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ١/ ٨٢.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. سورة المائدة: آية: (٣٤)

يرى أبو السعود أن الآية تكشف حال الأحبار والرهبان الذين يغوون ويخدعون العامة من أتباعهم المتخذين لهم أربابا يطيعونهم في الأوامر والنواهي، إذ يأخذون هذه الأموال عن طريق الرشوة عندما يغيرون الأحكام والشرائع من باب التخفيف والمسامحة مقابل هذه الرشوة؛ ثم يقومون بعمليات الكنز والتخزين لهذه الثروات؛ فالله قد أدخل غير المنفقين من هذه الأمة في هذه الدائرة من باب الأسوة لهم وأنهم يستحقون العذاب الأليم مثل الأحبار والرهبان. (٥٥)

يذكر أبو السعود هذا الربط وفي ذهنه الأمراء والحكام الذين يحرضون الناس على عدم الخروج لجهاد الأعداء، ويمارسون الفتوى التي تؤسس على الرخص والتساهل؛ ولعله يشير في هذا إلى ما ذهب إليه مارتن لوثر؛ ويحذر دولة الخلافة من كثير من هذه الأصناف التي تجعل الدين عقبة في طريق التحرر الفكري والعقلي المنضبط.

ويرى أبو السعود أن أحد أوجه معنى قولَه تعالى {وعلم آدمَ الأسماءَ} خلقه من أجزاءَ مختلفةٍ وقوىً متباينةٍ مستعداً لإدراكِ أنواعِ المُدرَكات من المعقولات والمحسوسات والمتخيَّلات والموهومات وألهمه معرفةَ ذواتِ الأشياءِ وأسمائها وخواصِها ومعارفِها وأصولَ العلم وقوانينَ الصناعاتِ وتفاصيلَ آلاتِها وكيفياتِ استعمالاتها. (٥٦)

ورود الإشارات إلى ذوات الأشياء وخواصها وأصول العلم وقوانين الصناعات في تفسير آيات الخلافة فيه دليل قوي يثبت الرؤية الثاقبة لهذا المفسر؛ إذ كان يحث الخلفاء والأمراء على الأخذ بالأسباب لبناء دولة قوية تقف في وجه الغرب الذي بدأ في التفوق المادي.

وقال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} سورة الإسراء: آية: (٧٠)

---

(٥٥) ينظر: أبو السعود، مصدر سابق، ٤/ ٦٢.

(٥٦) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه،١/ ٨٤.

يرى أبو السعود أن التكريم يشمل المسلم والكافر والبر والفاجر؛ ومقصود به التكريم المتمثل في الصورة والقامة المعتدلة، وقدرة الإنسان على التسلط على كل ما في الأرض عن طريق الصناعات والتمتع بها؛ والادعاء بأن القرد يشترك مع الإنسان في بعض الصفات ومنها طريقة الأكل فليس صحيحاً؛ لأن القرد يأكل برجله التي يتناول بها القاذورات. (٥٧)

يفهم من كلام أبي السعود أن بذرة القول بأن أصل الإنسان كان قرداً قد راجت وانتشرت حتى قبل ظهور داروين الذي ربما تأثر بقول ابن عربي الصوفي الذي أشار في كتابه(عقدة المستوفز)، ولهذا فنَّد أبو السعود هذه الفكرة؛ ويفهم من ذلك أن الرجل كان على قدر عال من الثقافة والعلم والمعرفة؛ ويرى في تطور الصناعات أكبر دليل على الفرق بين الإنسان والقرد.

الخاتمة: النتائج والتوصيات:

شمل هذا البحث مجموعة من النتائج والتوصيات التي توضح الدور الكبير الذي قام به علماء التفسير في التأصيل لدولة الخلافة الإسلامية العثمانية على امتداد ثلاثة قرون وفي مقدمتهم العلامة أبو السعود.

أولاً: النتائج:

توصل الباحث إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها في الفقرات التالية:-

- تأثر العلامة أبو السعود بنشأته في بيت قام على التصوف والعلم والحكم والسياسة؛ مما وسع فكره وفهمه للنص القرآني والأحاديث النبوية وفقه التراث الإسلامي؛ ووظف كل ذلك لخدمة دولة الخلافة.

ساهم فكر أبي السعود الذي يقوم على تفسير القرآن الكريم- عبر كتابه إرشاد العقل السليم- والذي أهداه إلى خليفة المسلمين- ساهم في التأصيل لكل العمليات العسكرية التي قامت بها دولة الخلافة سواء ضد الصليبيين أو الرافضة أو الأمراء الذين حاولوا الانفصال من دولة الخلافة والتعاون مع أعداء الأمة.

- ظهر من خلال هذا البحث أن التصوف السني كان هو الأصل في سياسة دولة الخلافة العثمانية؛ مما جعلها تقوم على أرضية روحية قوية مشدودة إلى الإيمان بالغيب، وبعيدة عن التطرف والغلو في علاقاتها مع الآخر؛ وأن التكوين الصوفي لأبي السعود وأسرته ساهم في تعميق هذه الروح.

---

(٥٧) ينظر: أبو السعود، المصدر نفسه، (٥/ ١٨٦)

- استطاع أبو السعود من خلال شرحه للنصوص القرآنية التي وردت في الخلافة أن يقدم نظرية متكاملة ساهمت في التأصيل لدولة الخلافة العثمانية ووضعت شروطاً وضوابط لهذا الفهم السياسي لواحد من أخطر أنواع الحكم.
- اتضح أن المفسر أبو السعود له فكر وسطي بعيداً عن الغلو والتطرف وهو يشرح النصوص القرآنية التي توضح مفهوم المواطنة والعلاقة مع الآخر؛ مما مكن دولة الخلافة أن تدير التنوع الإثني والعرقي والديني والثقافي والفكري بحنكة وسعة أفق وتوازن في دولة كادت تضم كل شعوب العالم؛ وهذا ما جعل أعداءها يسقطونها عن طريق إحياء العصبيات بكل أنواعها.
- كشف البحث أن المفسر أبو السعود قدَّم رؤية متكاملة وإشارات واضحة أسس فيها للنهضة الصناعية؛ ولعل إقبال دولة الخلافة العثمانية على الأخذ بأسباب النهوض المادي كان ثمرة طبيعية لهذا العالم.

ثانياً: التوصيات:

من خلال هذا البحث يمكن تقديم عدد من التوصيات التي تحتاجها الأمة في هذا العصر وهي مواجهة بالتخلف من جانب وبالغلو والتطرف من جانب ثاني، وبموجة من الإلحاد والتفسخ الأخلاقي من جانب ثالث، وتتمثل هذه التوصيات في الآتي:-

- ضرورة جمع وحصر كل العلماء في أبواب العلوم الشرعية بصفة عامة وعلماء التفسير بصفة خاصة للوقوف على جهودهم في بناء دولة الخلافة الإسلامية.
- حث وحض طلاب العلم في الدراسات العليا على تحقيق ودراسات المخطوطات في هذا الجانب.
- وضع موسوعة علمية معرفية واسعة تبين جهود العلماء في التأصيل للحكم الإسلامي ولمفهوم نظرية الخلافة في الحكم.
- إجراء دراسات مقارنة بين علماء دولة الخلافة الإسلامية خلال الثلاثة قرون التي حكمت فيها مع حركة العلم والنهضة في الغرب؛ لمعرفة التأثير والتأثر.

المصادر والمراجع:

١ أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢ أحمد بن أحمد النهرواني، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، تحقيق هشام عبد العزيز عطا.

٣ أحمد بن محمد الأدنه وي، طبقات المفسرين، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ، المحقق: سليمان بن صالح الخزي.

٤ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.

٥ باول شمتز، الاسلام قوة الغد العالمية، مكتبة هبة للطباعة والنشر، ١٩٩٨٣م،

٦ بسام العسلي، سلسلة جهاد شعب الجزائر، الناشر: د ار النفائس.

٧ تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية.

٨ خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٩ د. اسماعيل مكتبة العبيكان، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٠ د. توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.

١١ د. جميل بيفون، د. شحادة الناظور، الاستاذ عكاشة، تاريخ العرب الحديث، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الأمل للنشر والتوزيع.

١٢ د. زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، عالم المعرفة.

١٣ د. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

١٤ د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٥ د. محمد نصر مهنّا، الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي الطبعة الأولى، ١٩٩٠/ ١٩٩١، المكتب الجامعي الحديث، طبعة أولى، ١٩٩٠م.

١٦ د. نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٧ علي بن نجيب الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، دار طيبة مكة، دار آل عمّار الشارقة، الطبعة الثانية،١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٨ عَلي محمد محمد الصَّلاّبي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٩ مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الموطأ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي.

٢٠ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة – بيروت،

٢١ محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٢٢ محمود المقدشي، نزهة الأنظار في التواريخ والأخبار، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م، تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ.

٢٣ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٤ نبيل عبد الحي رضوان، القوة العثمانية بين البر والبحر، دار الثقافة، ١٩٩٣م.

٢٥ نجم الدين محمد بن محمد الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، المحقق: خليل المنصور.

٢٦ الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.